

في سبيل إعادة

كتابة تاريخ الإسلام

أنور الجندي

دار الاعتصام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تتعالى الصيحات فى الوقت الحاضر بالدعوة الى اعادة كتابة تاريخ الاسلام بعد أن تبين للعلماء والباحثين أن الصورة الموجودة الآن فى أيدى شبابنا وطلبة مدارسنا وجامعاتنا والتى صنعت فى ظل الاستعمار وتشكلت أولا فى البلاد التى سيطر عليها ليست بالصورة المثلى ، ذلك أن هذه الصورة نبتت أساسا فى ظل الاحتلال بعد أن انفصلت عن الدولة الأم : الدولة العثمانية . وكان الطابع الأساسى الذى أريد لها هو أن تكون كتابات محلية خالصة : لا تستهدف كتابة تاريخ الاسلام نفسه ولكن كتابة تاريخ الأوطان ، ومن ثم انحازت هذه الكتابات للأمة أو القطر أو البلد وأعلت من شأن وجوده الخاص ، وتاريخه القديم ، واستوحت أشد الصفحات بعدا عن الأصالة وعن الرؤية الصحيحة ، فأعلى شأن الفرعونية والفينيقية والبابلية والآشورية والبربرية والزنجية وغيرها . فاذا عرض أمر الاسلام فانما يعرض على هون وفى أسلوب يوحى بأن الأمم أو الأقطار كانت أكبر منه وأنها حين دخل عليها أقامته وسيطرت عليه وعدته بعض الكتابات استعمارا أشبه بالاستعمار الفارسي والرومانى .

ويرجع ذلك كله الى أن النظرة الأساسية التى قامت عليها كتابة التاريخ نظرة استعمارية ووافدة وحين فتحت الآفاق

لدراسة تاريخ الاســـلام ، درس على أنه تاريخ الدولة أو الامبراطورية التى قامت ثم تمزقت الى دول . وحين عرض لم يعرض الا من خلال خلافات بعض الملوك والأمراء والحكام وصراعاتهم الخاصة .

وكان التركيز شديدا على الخــلاف الأول بين الصحابة (عثمان وعلى ومعاوية) . فى محاولة لتفسيره تفسيرا ماديا خطيرا بأنه صراع على الحكم .

وغلبت على دراســة التــاريخ مذاهب الاستشراق وهى مذاهب غربية أصلا قامت فى ظل تاريخ اوربى وغربى له تحدياته وظروفه ، مثل الصراع بين الكنيسة والعلماء ، وبين الأمراء والشــعب ، وصراع المــذاهب الكاثوليكيــة والبروتستانتية وذلك القتال الرهيب بين الملوك والدول والأمم .

هذا المذهب فى تفسير التاريخ الذى كان مطبقا فى الغرب حاول المستشرقون نقله الى أفق التاريخ الاسلامى رغبة فى محاكمة هذا التاريخ اليه ، فكان خطرا وفاسدا ومضطربا ، لأنه ليس متسقا معه وليس منبعثا من وجوده ومذاهب التاريخ والأدب والنقــد وغيرها جميعا لا يمكن أن تنقــل من بيئة الى أخرى ، وانما هى تنبع من بيئتها لأنها جزء من الثقافة الذاتيــة الخاصة القائمة على العقائد والتراث والعــادات والطوابع العميقة للأمم .

ولكن الاستعمار ومن ورائه التغريب والغزو الثقافى فرض هذا المنهج من تفسير التاريخ على التاريخ الاسلامى فمزقه اربا واحاله ركاما ، فهو أولا يدرسه مجزءا واقعــة واقعة أو أنه يرجح رواية توافق الهوى أو أنه لا يفهم تيار التاريخ

الاسلامى نفسه ، هذا التيار الذى لا يفهمه الا من يعرف منطلقه الأساسى كما رسمه القرآن الكريم وصوره الاسلام فى أصوله وقيمه .

وقد استهدفت هذه الدراسات بالطابع الوطنى الخالص ، الذى حجب عنهـا الصورة الكاملة للتاريخ بأبعادها حيث عجزت هذه الصورة أو تعمدت الا تشير الى أن هذا الوطن وهذه الدولة ، ليست الا جزءا من الوطن الاسلامى ومن الدولة الاسلامية اساسا وان الروابط بين الجزء والكل لا يمكن أن تنفصم لأنها روابط عقيدة ولغة وشريعة وتاريخ طويل وأمة وسطى جامعة لا يستطيع جزء منها أن ينفصل أو ينغلق مهما حاول ذلك أو حاوله له الاستعمار .

وفضلا عن هـذا فان هـذه النظرة الوطنية الضيقة التى جهلت مكانها كجزء من الكل ، لم تتوقف عند هذا الحد ، بل انهـا أعلنت استعلاءها بخصائصها التاريخية القديمة أو طبيعتها الخاصة ثم ذهبت الى أبعد من ذلك حين أعلنت الحرب والخصومة على الأجزاء المجاورة لها واقامة سد عال بينها وبينه وذلك بهـدف ألا تتصل الأجزاء مرة أخرى ولا تلتقى .

ولقد استمر هذا الاتجاه طويلا ثم جاءت بعد ذلك الدعوات القومية والدعوة العربية بالذات فكان لها أيضا محاذيرها فى كتابة التاريخ . فقد أخذ العرب يفصلون تاريخهم عن تاريخ الأمة الاسلامية ويفصلون جغرافيتهم عن جغرافية العـالم الاسلامى وبدا كأنما العرب أمة قائمة بنفسها فكان لها تاريخها الخاص فى الجاهلية ولم يكن الاسلام الا نبتا من النبات ، ولا تزال الأمة العربيـة هى الأمة العربيـة التى لم يغير

فيها الاسلام شيئا ، ثم يجيء بعد ذلك الاستعلاء بدور العرب فى الفتح والتوسع والحضارة .

وكل هذا ايضا من آثار السيطرة الاستعمارية على التاريخ الاسلامى فى محاولة تمزيقه الى تاريخ دول وأمم والى صبغ هذه التجزئة بالتعصب والاستعلاء العنصرى .

ولذلك فقد كان من اخطر ما واجه التاريخ الاسلامى ، هذه المجموعة من أتباع المستشرقين وحملة الوية الفكر الغربى ودعاة التغريب الذين سيطروا على مجال التربية والتعليم والذين ما زالوا منبثين فى عديد من الجامعات ومعاهد الارساليات حيث نجد الشباب المسلم يعرف عن نابليون اكثر من خالد بن الوليد وطارق بن زياد .

هؤلاء الذين يريدون تفسير تاريخنا الاسلامى فى الاطار المحلى أو الاقليمى أو القومى أو الوطنى فى سبيل اعلاء دعوة العنصرية أو العرق مع أن الاسلام جاء ليقضى على استعلاء العنصرية والعرقية ويدعو الى اقامة مجتمع الاخاء الانسانى العالمى .

كذلك فان الدعوة الى ربط التاريخ الحديث بالتاريخ القديم السابق للاسلام جاهليا أو فرعونيا أو فينيقيا أنما هو دعوة الى أمر مستحيل حيث سيطر الاسلام على الساحة الفكرية والاجتماعية والروحية والنفسية للبشرية بعد أربعة عشر قرنا وقطع الصلة بينهم وبين الماضى قطعا لا سبيل الى اعادته وقد أكد علماء كثيرون غربيون ايضا نظرية « الانقطاع الحضارى ولا استمرارية التاريخ » فى هذه المنطقة ، والحاجز

الضخم الذى اقامه الاسلام بين الأمم وبين ما كان لهـا من تاريخ ودين وعقيدة وفكر من قبل .

ذلك أن ظهور الاسلام — وهو كذلك فى تقدير الباحثين الغربيين المنصفين هو علامة بارزة على بدء تاريخ العصر الحديث حتى بالنسبة لعوالم الغرب نفسه وان كل ما سبق الاسلام من حركات التاريخ انما كانت تمهيدا له ، فالاسلام هو الذى حمل الى البشرية لأول مرة « الأخوة البشرية » ووحدة الجنس الانسانى ووحدة الدين ووحدة الفكر بديلا عن الوثنية فى الفكر والعبودية فى المجتمع فهو الذى حرر الفرد فى الجماعة وحرر النفس من عبادة غير الله وحرر العقل بالنظر الى الكون فدفعه الى انشاء المنهج العلمى التجريبى قاعدة الحضارة القائمة ولم يكن يعرف منه قبل الاسلام شىء ما .

كذلك الخطر الذى نواجهه فى دراسة التاريخ : وهو تاريخ اسلامى أم تاريخ عربى أم تاريخ اسلامى عربى وفى تسمية الحضارة هل هى اسلامية أم عربية والفتوحات هل هى اسلامية أم عربية والعلماء والمفكرون هل هم عرب أم فرس أم ترك .

كل هذه محاولات للتزييف واثارة الشبهات وصرف الشباب المثقف عن الحقيقة التى هى معروفة ومقررة من أن الاسلام هو الذى أعطى العرب هذه الوحدة وهذه المكانة وهو الذى دفعهم فى الأرض وأن هذه الحضارة وذلك الفتح وهذا العلم كله انما جاء من الاسلام ولولا الاسلام ما استطاع العرب أن يقتحموا الآفاق أو يقيموا حضارة ما .

ونحن نعرف أن التراث الفكرى الذى كان موجودا قبل الاسلام سواء تراث بابل الغنوصى او تراث فارس الوثنى أو تراث اليـونان المادى ، انما كان عبـارة عن محاولات من البشر لتبرير رغبات الانســان ومطامعه وأهوائه دون أن تكون قائمة على توحيد أو عدالة او رحمة وان تراث الأديان نفسه كان قبل ذلك كله هو الضوء الوحيـد الذى عرفته البشرية فى طريقها ، وان هذا التراث قد حاولت التفسيرات الزائفـة والدعوات المضللة أن تبـدده وتمزقه وتخرجـه عن مضمونه حتى جاء الاسلام فالقى الى البشرية تلك الحصيلة الضخمة البارة من العلم والفهم والايمان والضياء لاخراجهم من الظلمات الى النور وان هذه الحصيلة وحدها هى التى فتحت الآفاق الى النهضة والحضارة التى شملت أغلب أجزاء العـالم اذ ذاك — هـذا وان كانت الحضارة الاسلامية قد استصفت اليها كل عصارات الفكر القديم وما وجدته صالحا وصهرته فى بوتقتها — ولم تترك الا الزائف الفاسد .

ومن هنا فالحضارة اسلامية حقا ، وهؤلاء العلماء ليسوا عربا وليسوا فرسا وليسوا اتراكا وانما هم مسلمون كونت عقلياتهم فكرة التوحيد وملأت نفوسهم كلمة القرآن وعمرت أرواحهم دعوة الله الى النظر فى السـموات والأرض فكل ما أنتجوا انما جاء من محيط القرآن والاسلام وليس من محيط بلادهم أو تراثهم ، ذلك أن الاسلام انما أعاد صياغة عقليات وقلوب ونفوس أربابه وأصحابه خلقا جديدا فشكلهم على نمط جديد هو روح الاسلام ومن قلب هذا الروح كان نتاجهم ومن هنا فان هذا التكوين النفسى والعقلى هو بمثابة الجنس والأخوة الاسلاميين .

ان منهج تفسير الاسلام للتاريخ هو المنطلق الوحيد للنظر

فى التـــاريخ الاسلامى العربى واعادة كتابته من جـــديد ، فان التاريخ المكتوب الآن واقع تحت تأثير النظرة الاستشراقية التى تغض من شأن الاسلام لحساب خلفياتها الاستعمارية ، او النظرة القاصرة التى تستمد قدرتها من العقلية الغربية المسيحية التى لم تستوعب الفارق البعيد بين العقائد والأخلاق والقيم والتى تنطلق من مصدر واحد هو أن الاسلام دين عبادى لاهوتى محض ، وهى نظرية المسيحية ، او نظرة الفكر الغربى المسيحى التى لا تعترف بأن الاسلام انما هو نظام اجتماعى ومنهج حياة أصلا وأن الدين بمعنى العبادة واللاهوت جزء منـــه .

فالغربى ينطلق من قاعـــدة أن الدين لله وأن المجتمع بكل شرائحـــه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يخضع لنظريات بشرية وأيدلوجيات يصنعها الفلاسفة وليس كذلك الاسلام : الاسلام الذى أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليكون منهج حياة لهذه الأمة التى شرقت وغربت ووصلت الى حدود نهر اللوار فى فرنسا والى أسوار فينـــا فى قلب اوروبا والتى يشمل ضياؤها ذلك المدى الممتد من الصين الى غرب أوروبا ومن هنا تبدأ القاعدة التى تقوم على التفسير الاسلامى للتاريخ .

فهل آمن دعاة اعادة كتابة التـــاريخ بهـــذه القاعدة الأصولية ، ان عليهم ان يعلنوا ذلك صراحة وأن يلتزموا ذلك فى كتابة أبحاثهم على ان يختار لهذا العمل كل من آمن بالاسلام وعاش له وامتـــلأت نفسه ايمانا بصدقه وبقدرته على تغيير حياة المسلمين ودعوتهم الى القوة والعزة من جديد ذلك لأن التفسير الاسلامى للتاريخ يؤمن بأن هزيمة المسلمين فى الســـنوات الماضية وتقلبهم بين الغزو والنكسة والنكبة

واقتطاع فلسطين وبيت المقدس كل هــذا انما جاء ثمرة (التحول) الخطير الذى دفعهم الى نفض أيديهم من مناهج مجتمعهم ونظام حياتهم الأصيل القرآنى المصــدر الربانى الأساسى ، الى التماس مناهج الأمم ، هذه المناهج البشرية سواء منها الغربية أو الماركسية وان هذا التفريط فى منهجهم هو الذى القى اليهم هذه الهزائم والنكبات وانه لا خلاص لهم مما هم فيه من هزيمة وتخلف الا بالعودة مرة أخرى الى التماس منهجهم الأصيل والاستمداد من النبع الأول : القرآن الكريم .

وان هذه الظاهرة قد تكررت خلال تاريخهم مرات ومرات ، فهم كلما نفضوا أيديهم من منهج القــرآن ضربهم الله بالذل حتى يعودوا اليه (**سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**) .

ذلك تفسير حركة التاريخ الاسلامى بين النصر والهزيمة .

كذلك فان هنــاك ملحظا اساســيا لابد من تقــديره هو أن هنــاك فرقا بعيــدا وبونا شاسعا بين « المنهج » وبين « الواقع » : بين المنهج الربانى الذى جاء به الاســلام والذى لا يتخلف ولا يتعثر والذى يحمل فى تضاعيفه اسباب النصر والقوة ووسائل الهزيمة والتخلف .

وبين الواقع التــاريخى الذى عاشه المسلمون والذى هو التاريخ الاسلامى ولا يمكن أن يكون التاريخ الاسلامى حجة على المنهج أو مثارا لتوجيه الشبهة اليه ، بل على العكس من ذلك : ان المنهج هو الحجة لأنه هو عنصر الثبات وهو القوة

التى يستمد منها المسلمون أسباب حياتهم وطريق عيشهم . فالمسلمون حين ينحرفون عنها تقع الأزمة وتبدأ عوامل الهزيمة .

وتاريخ الاسلام فيه النصر وفيه الهزيمة وكلاهما يرد الى تطبيق المنهج أو التخلف عنه .

وفى تاريخ الاسلام الذى يعرض الآن ويقدم لأبنائنا زيف كثير لأنه يحاول أن يعلى شيئا كثيرا من الروايات الباطلة فى سبيل اثارة جو من الخصومة والخلاف بين الفرق المختلفة أو الأحزاب والدول ، وذلك مما فرضه الاستعمار والاستشراق حتى يحتقر المسلمون تاريخهم وتضعف مكانته فى نفوسهم .

وكذلك فان هنـــاك ازورارا كبيرا عن المواقف الحاسمة والبطولات الضخمة ، وذلك حتى لا ينبهر المسلمون بعظمة أجدادهم ، ولا يعرفوا حقيقة الدور الذى قاموا به فى بناء الحضـــارة .

وكذلك فان هنـــاك آراء بأن للعـــامل الاجتماعى آثارا فى التـــاريخ ، ولكن ليس لأحـــدها أن يفترض أنه وحـــده العـــامل المؤثر وانما هى فى مجموعهـــا عوامل ذات أثر بدرجات متفاوتة وهناك عامل آخر له أهميته ولا ينفصل أبدا فى دراسة تاريخ الاسلام هو عامل العقيدة والوحى والنبوة ، وارادة الله العليـــا التى تتحرك من داخلها ارادة الانســـان والتى تفرض وجودها على حركة الكون كله .

وبعد فاننا نتطلع الى اعادة كتابة تاريخ الاسلام بحرص كبير ونأمل من الغيورين أن يكونوا عونا لأمتهم لتخرج من دائرة سيطرة الاستشراق والتغريب والغزو الثقافى .

ان المحاولة التى جرت منذ وقت بعيد فى سبيل تفسير الاســلام (حركته ودعوته) تفســيرا ماديا صرفا لا ريب تعجز أشد العجز عن أن تقول الكلمة الفاصلة ، لأنها تعجز عن أن تستوفى الأبعــاد المختلفة ، والجوانب المتعــددة ، حين تضع بينها وبين الحقيقة حجابا ، هذه الحقيقة الممثلة فى العوامل النفسية والمعنوية والروحية والفكرية وهى عوامل أشد أثرا وأبعد عمقا وأكثر أهمية من الجانب المادى الواحد الذى هو أحد جوانب التفسير لا محالة ولكنه ليس واحدها وليس أكبر أهمية .

ان التفســير المادى او الاقتصادى للتــاريخ الاسلامى انما يحاول ان يواجه البحر بإناء من ماء ، او الجنة الفيحاء بفسيلة من حطب .

لقد حاولت كتابات كثيرة فى السنوات الأخيرة ان تتمثل الاســلام وكأنه ثورة الفقراء ضد الأغنياء فحسب والحق أن الاســلام ليس ثورة موقوتة ولكنــه حركة شــاملة من حيث الزمن ومن حيث المضــامين لتغيير أشــياء كثيرة تغيير المجتمع وتغيير النفس وتغيير الأخلاق وتغيير الاقتصاد .

ومن هنـــا فان الاســـلام ليس هو التفسير الاقتصادى وليس محمد صلى الله عليه وســـلم هو المصلح الاجتماعى او رسول الحرية وليس يكفى حين يذكر أن تورد شـــطر الآية الكريمة **(قل انما أنا بشر)** فهـــذا تزييف فان الآية تقول : **(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهـــكم اله واحـــد)** .

لقد جاءت كتابات التفسير الاقتصادى ثم المادى متباينة حذرة فى (على هامش السيرة وفى الفتنة الكبرى) ثم اتسعت بعد ذلك فى (محمد رسول الحرية) ونمت شبهاتها حتى لقد حرص الكثيرون على أن يربطوا بين هذه الآثار على ما بينها من فروق فى الزمن ، واختلاف فى المصادر والموارد فى ادعاء كاذب بأن مثـــل هـــذه الكتابات حاولت أن تعتمد على الوقائع لا على الخوارق وقد ظن أصحابها أن المعجزات يمكن أن تسلك فيما يوصف فى الغرب بأنه أساطير ولا ريب أن لرسول الله معجزات غير القرآن ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يجـــد الطريق سهلا الى رسالته ولم يجد العرب مستعدين للنهضة فنهض بهم — كما يردد البعض — ومن هنا فانه فى نظرهم لم يكن فى حاجة الى معجزات أو خوارق .

ولا ريب أن هذا الادعاء باطل وان وقائع حياة رسول الله بعد بعثته الى هجرته خلال ثلاثة عشر عاما تكشف فى وضوح مدى المعاناة والظلم والاضطهاد فى عشرات الصور والمواقف مما يدهش معه أى باحث كيف واجهت قريش والعرب دعوة التوحيد وقاومتها .

ومن هنـــا نعجب من قول أحدهم حين قال : « ومحمد بهـــذا ليس فى حاجة الى خارقة تعينه على اقتنـــاع الناس

بما يقول لأنه بما يقول انما يستجيب لآمال الناس واحلامهم » .

ولقد تردد هذا القول قديما فى (النثر الفنى) وفى بعض كتابات (الشعر الجاهلى) وغيره وهو من زيف المستشرقين الذين يهدفون به الى التقليل من عظمة الرسالة الاسلامية .

ولقد واجه العلامة فريد وجدى مثل هذه الشبهة حين قال : « أن قريشا وهى أرقى القبائل لغة وفهما ومكانة لم تقبل دعوة النبى الا رجالا ونساء لا يزيد عددهم على بضع عشرات . ولو كانت قريش أقرب العرب الى الحضارة لقابلت دعوة محمد بصدر رحب وأحلتها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وابطال دينهم .

« ان أتباع النبى الأولين اضطهدوا اضطهادا شـــديدا حتى هاجروا الى بلاد الحبشة وأن الجاهلين كانوا يهزءون بالدعوة للدين وبالداعى اليه ، وأن النبى لبث على هذا الحال من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة ، ولما انست قريش من النبى الهجرة قررت قتله وأرصدت له ، ولما علم اهل مكة بافلاته اقتفوا أثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح ان قريشا وهى مظنة النجابة والفهم من العرب فى ذلك العهد لم تكن (قد استعدت للملك بعد تطورات عديدة) فان المجتمع الذى يقاتل الداعى للتجديد والنهوض بهذا النفور ويصبر عليه ثلاثا وعشرين سنة لا يزداد بعدها الا عنادا وتشديدا لا يمكن أن يوصف بأنه مجتمـــع كان مستعدا للنهوض وانه سرعان ما نهض مع النبى صلى الله عليه وسلم .. » .

كذلك فان قريشا لم ترفض الاسلام لأنه يقضى على نفوذها الاقتصادى وحده ، ولكنها كانت تعلم انه قضاء على كيانها الفكرى والاجتماعى والدينى جميعا .

ومن هنــا كان خطأ القائلين بالتفسير الاقتصــادى ، ذلك أن الأديان السماوية انما تغير المجتمع كلية ومن الأساس وهى حين تتصد أول ما تقصد فانما تبنى النفس الانسانية وتشكلها تشكيلا جديدا فيه صمود وصبر وقدرة على مواجهة الاضطهاد واحتمال البلاء وتهيئها لعمل كبير توهب فيه الأرواح والنفوس ويجل عن المعانى المادية .

ومن هنا كانت دهشة المستشرقين وغيرهم لعظمة الفتح الاسلامى الذى صنعه هؤلاء الذين بناهم محمــد فى خــلال ثلاثة عشر عاما فى مكة وغير بهم الدنيا كلها وليس جزيرة العرب وحدها ، لقد نظروا الى هذا الفتح الذى تم فى خلال بضع وسبعين سنة على أنه معجزة لم تفسر . نعم كانت تعرف قريش أن معارضة محمــد لهم لن تفقدهم نفوذهم الاقتصادى ولكنها ستلغى كيانهم الغاء كاملا بكل فكره وماضيه ومواقفه الاجتماعية والأدبية .

انه تغيير جذرى ليس الاقتصاد الا جانبا منه ، تغيير فى نظام الموءودة وزواج الأخت وفى العــلاقة بين الأهل وفى القضاء **(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا : اعدلوا هو أقرب للتقوى)** كان القوى اذا أذنب تركوه واذا أذنب الضعيف أقاموا عليه الحد ، الله تبارك وتعالى هو المشرع ، تجريد الفرد من سلطانه ومن الخضوع لمقاييس الهوى ، مقاييس جديدة ربانية لكل الأمور .

موقف جـديد بالنسبة للقيم الكبرى : الحرب والعلم والكرم فهى ليست موجهة للظهور أو الاستعلاء أو الجـاه ولكنها موجهة لله وحده ، شعار لا اله الا الله يغير المجتمع كله ويغـير النفس الانسانية على مختلف المستويات الدينيـة والاجتماعية والفكرية والنفسية والأخلاقية ، ليست حركة طبقة ضد طبقة ، ولا ثورة الفقراء على الأغنياء فقد اشتركت فيها الطبقات واشترك فيها الأغنياء والفقراء ، وخرج الأغنياء عن مالهم ، وخرج الأبناء عن آبائهم وأنكروا ترفهم وفجورهم .

ويبدو ذلك واضحا فى لقاء المشركين للنبى :

ان كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

وان كنت تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالا . وتكون اجابة الرسول هى منطلق تفسير الاسلام :

(والله يا عم : لو وضـعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه : ما تركته) .

ولم يكن موقف الرسـول موقف المزايدة او المواءمـة أو الالتقاء فى منتصف الطريق ، بل كان حاسما وكان رفضه لقيم المجتمع القديم صريحة ، أما ما أقره الاسلام من قيم الجاهلية ، فكان من أصفاها ، وتلك هى بقايا دين ابراهيم مما لا يتعارض مع التوحيد .

وكان أبرز ما فى دعوة الاسلام بناء الرجال على الصمود والصبر والجلد وعزلهم عن مجتمع الجاهلية بمختلف الوان

فجوره حيث أجرى الاسلام تغييرهم من أعلى الراس الى اخمص القدم (**ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**) .

كانت دعوة الاسلام مفاضلة بين الله وحده وبين الأهل والولد ومتاع الحياة كله ، ولذلك فان عدد الداخلين فيها كان قليلا ، وكانت المحن تتوالى لتصفية هذا القليل ودجر صلابة عوده .

كان الاسلام يستهدف بناء انسان فى سبيل فكره ، ليس له فى الدنيا نهمة ولا مطمع الا أن يقدم روحه خالصة لله .

ومن هنا تعجز مقاييس التفسير المادى للتاريخ أو التفسير الاقتصادى للتـــاريخ أن تحيط بذلك كله وأن تعرف الفرق بين هذه القيم المعنوية التى لا تقاس بالمقاييس المحسوسة .

واذا كانت هذه القيم المعنوية لا تقاس لأنها ليست مادية محسوسة فانها تستطيع أن تكشف عن نفسها بآثارها ، ان آثارها التى انتجتها والتى يقف أمامها أصحاب المنهج المادى واجمين عاجزين هو الدليل عليها .

« ليس من المنهج العلمى الحق أن ينكر وجود القيم المعنوية او الروحية أو النفسية لمجرد انه لا يمكن أن يلمسها أو يراها ، كما تلمس او ترى الأشياء المادية فان الأثر الذى تحدثه ينهض دليلا محسوسا على وجودها » .

ان المقاييس المادية والاقتصادية لتعجز أن تفسر كيف يبكى العائدون من الغزوات لأنهم لم يستشهدوا ، ولا الذين

لقوا آباءهم فى صفوف الكفار فقتلوهم ، ولا الذين هاجروا وتركوا اموالهم واولادهم واستأنفوا حياتهم فى المدينة بدينار اقترضوه ، ولا يستطيعون أن يفسروا كيف تنكسف الشمس يوم موت ابراهيم ابن النبى ثم يقف النبى فيعلن ان الشمس لا تنكسف لموت احد ، أو ان يقف النبى فى حجة الوداع فيقول انه يلغى كل الربا ويضعه ، وأول ربا يضعه تحت قدميه هو ربا عمه العباس بن عبد المطلب ، أو يقول : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ، أو أن توضع الحجارة المحماة على صدر بلال فلا يزيده ذلك الا أن يقول : أحد أحد .

كل هذا يعجز عن تفسيره المذهب المادى والمذهب الاقتصادى .

لقد كانت دعوة الاسلام شاملة تعجز عنها تفسيرات مذاهب الماديين ويصدق فى هذا نموذجان من القول :

أما احدهما فقول فيليب متى :

« لم يسجل التاريخ ان رجلا واحدا سوى النبى محمد كان صاحب رسالة ، وبانى أمة ومؤسس دولة ، هذه الثلاثة التى قام بها محمد كانت فى نشأتها وحدة متلاحمة لا يمكن أن تنفصم الواحدة منها عن الأخرى وكانت الى حد ما متوافقة يشد بعضها ازر بعض وكان الدين من بينها على مدى التاريخ القوة الموحدة وكان ابقاها زمنا حتى اذا رحت تعد الناس فى العالم اليوم وجدت أن السابع أو الثامن منهم يدعو نفسه مسلما » .

اما النص الثانى فهو قول الأســتاذ تريتون فى كتابه « الاســـلام عقيدته وعبادته » :

« اذا صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيـــان أسباب قيام الدول وسقوطها فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى ان يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العـــلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فيرى أنها تقع فى هذا الشىء الجديد : الا وهو الاســـلام » ..

ويقول ولفرد كانتول سميث فى موقف الأمم المختلفـــة من تفسير التاريخ :

« الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده فالهندى مشغول بعالم الروح ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، اما المسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة او فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط والمثـــل الأعلى عنـــده غـــير قابل للتطبيق والواقع البشرى المطبق فى الأرض منقطع عن المثل الأعلى .

اما الماركسى فهو قوى الايمان بحتمية التـــاريخ بمعنى ان كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية فهو لا يؤمن الا بهذا العـــالم المحســـوس ، بل لا يؤمن الا بالمذهب الماركسى وكل ما عداه باطل والماركسى يتبع عجلة التـــاريخ ولكنه لا يوجههـــا .

أما المسلم فانه يحس بالتاريخ احساسا جادا ، انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضـــع نظاما واقعيا عمليا يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض فى اطاره . ومن ثم فهو يعيش كل عمل فردى او جماعى وكل شـــعور فردى أو جماعى بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق » ..

* * *

(٣)

خطأ التفسير المادى لحيـــاة الرسول

هناك محاولة مستمرة منذ أربعين عاما تحاول أن تفسر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ الاسلام تفسيرا اقتصـــاديا أو ماديا ، وهى ترمى من ذلك الى أن تجعـــل من حياة الرسول بطولة عربية أو بطولة اقليمية أو بطولة أمة أو عبقرية أو دعوة الى الحرية .

بدات هذه المحاولات بكتابات عن حياة الرسول مجردة من المعجزات ، محاولة أن تفسر جوانب الوحى وما يتصل بكثير من نواميس الكون وقوانينه تفسيرا مجازيا أو مناميا ، أو غير ذلك ثم اتسع نطاق هذه المحاولات فوصفت حيـــاة الرسول بأنها بطولة أو زعامة ولا ريب أن الهدف من نفى النبوة هو مقدمة لنفى الالوهية .

وان الهدف من نفى النبوة هو انكار الوحى وبالتالى انكار رسالة السماء جملة ومن هنا جاءت المحاولات المتعـــددة لوصف البطولة الانسانية ووضع مقوماتها على نحو مختلف كل الاختلاف عن النبوة التى يختار الله تبارك وتعـــالى من يشاء لها من عباده ويعـــده فى الأصلاب والأرحام جيلا من بعـــد جيل .

١ — فاذا تقررت فى نظر الناس قوانين معينة للبطولة الفردية البشرية أمكن الطعن فى النبوة لأن هـذه القوانين لا تتفق مع تقـديرات الله التى تعلو على القوانين وتأخـذ طابع المعجزات .

فالبطل فى النظرية المادية ، لابد أن يصـدر عن أسرة موسرة ، وعن ثقـافة عالية ، وعن أبوة حكيمة أما بيئـات الفقراء والأيتام والأميين فهى لا تصلح لاخراج البطل .

بينما تنقض النبوة هذه النظرية المادية نقضا كاملا وتكشف عن كذبها وتضليلها وتكشف عن قدرة الله فى اغناء النبى بعد فقر وتعليمه وهدايته بعد أمية وايوائه بعد يتم ، وفى هذا معنى المعجزة الالهية التى تنكرها نظرية البطولة الغربيـة الوافدة .

٢ — والاسلام يقرر المعجزة ، وهى الأمر الخارق الذى يحصـل على يد نبى مرسل تأكيدا لصـدق نبوته وليس فى المعجزات منافاة للعلم المادى وانما هناك قصور من أجهزة العقل والادراك عن معرفة الأسـباب التى انعقدت لهـا المعجزة ، فضـلا عن ايمان المسلم بأن الله تبارك وتعالى هو صانع السنن والنواميس والقوانين وهو وحده القـادر على خرقها على النحو الذى كشفت عنه الكثير من المواقف مع الأنبياء كالولادة لهم بعـد سن الكبر للرجل واليأس للزوجة ، والولادة من غير أب كما حـدث للسيد المسيح عيسى ابن مريم وكتجريد النار من خاصية الحريق كما حدث لسيدنا ابراهيم أو تجريد الخنجر من خاصية الذبح كما حدث لسيدنا اسماعيل وهكذا وتعرف المعجزة فى علم المصطلحات الاسلامية بأنها حقيقة تخالف القواعد العامة وتعارض المجرى

العـــادى للحوادث وسببها فوق ادراك البشر وهى حقيقة تتحدى كل من يرتاب فيها .

وفى مقدمة المعجزات معجزة القرآن فهى معجزة قائمة ابد الدهر ، تمتاز عن معجزات الرسل والأنبياء بأنهـــا باقية ، ومعجزة القرآن انما تمثل فى مطابقته الدائمة لحقائق الماضى والحاضر والمســـتقبل ، وصدق تحدياته للبشر فى عجزهم عن معارضته ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وفى الآيات التى أثبتتهـــا ولا تزال قائمـــة تعجز الملوك والدول والأمم عن مواجهتها .

٣ ــ ومن ناحية اخرى فان النبوة ضرورة اساسية للحياة البشرية وبناء الانسان الفكرى والاجتماعى فهى التى تحسم عشرات القضايا المصيرية التى تبقى بلا جواب عندما تقوم الريبة والشك فى حقيقة الوحى .

ان الوحى هو الذى يضع النقاط على الحروف فى تلك الشبهات التى تثير عوامل القلق والتمزق والصراع النفسى الذى يواجه الآن مجموعة الأمم التى الحدت وفصلت ما بينها وبين نور الله .

٤ ــ ان عجز العقل عن فهم الغيبيات وما يتصل بهـــا يكشف عن ضرورة الوحى والنبوة فالعقل غير كاف وحده وغير قادر وحده .

« والوحى يعاضد العقـــل ويؤكد حكمه ويجعله موثوقا فيما يصل العقل الى معرفته فيكونا دليلين على مدلول واحد

يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل المعاد ويكشف عن وجود الأشياء التى لا يدرك العقل كنهها ومنهجها » .

وقد التقى الوحى والعقل فى القرآن لأول مرة فى الفكر الانسانى والاسلام وأهله يؤمنون بأن المعرفة الانسانية ليست قاصرة على معطيات الحس ، وعلى حد تعبير الشيخ محمد عبده وقد نقلناه عنه « قد يعرض الدين شيئا يتجاوز حدود الفهم ولكن لا يعرض شيئا يتجاوز حدود الادراك مطلقا » .

٥ — ولقد امتدت النظرية الوافدة فى البطولة والوحى والنبوة الى القول بأن القرآن انطباع فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم .

وهو ليس كذلك ابدا ، فهنـــاك فارق واضح وعميق بين كلام النبى محمد ونظم القرآن الكريم يعرفه أهل البيان واللغة ويعرفون أبعاده ومداه .

وليس صحيحا أن القـــرآن فيض من العقـــل الباطن فى محاولة دعوى الاشادة بعبقرية محمد والمعيته وصفاء نفسه ولا ريب أن لمحمد كل صفات السمو النفسى ولكن وصفه بالنبى نسبة الى الوحى الالهى هى أكبر معطياته .

ومثل هذا القول انما يرمى الى محاولة خادعة لقطع الصلة بين المسلمين والقـــرآن فانه ان كان كلام محمـــد كان من عمل البشر .

وبذلك يفقد معناه الأسمى وجلاله الأعظم ويفقد « ثباته » الذى يعطيه تلك القـــدرة الضخمة على أن يكون الأساس

الذى يرتبط به كل فكر والقاعدة التى يمتد عليها كل بناء والاطار الذى تجرى فيه كل حركة وهناك ادلة كثيرة تدحض هذه الدعوة وابسطها « أن محمدا كان اميا لا يقرأ ولا يكتب فمن الذى أطلعه على ان ما فى القرآن مصدق لما فى التوراة » « وكان علمه بشئون قومه لا يزيد على علم غيره » فمن الذى اطلعه على تاريخ الأمم وقصص الأولين .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) .

٦ — ولقــد جلى الباحثون المسلمون ظاهرة الوحى : واكدوا « انها ليست ظاهرة نفسية داخلية تنبعث من كيانه صلى الله عليه وســلم وانما هى حقيقة خارجة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحى ومشاهد اخرى »(١) .

« وانما راى محترفو الغزو الفكرى فى (ظاهرة الوحى) : المنبع الأول للحقائق الدينية والكليات الاعتقادية ورأوا أنهم اذا استطاعوا تكدير صفاء هذا المعين الأول أمكنهم تكدير صفاء كل ما يتفرع عنه واقتحام أسباب الدس والتشويش عليه .

« من اجل هذا زعم بعضهم أن الوحى فى حياته صلى الله عليه وسلم انما كان نوعا من الالهام الخفى ، وزعم آخرون ان ذلك كان اشراقا روحيا معينا وأصرت جماعة أخرى على انه كان يصاب بالصرع » .

---

(١) راجع كتاب قصة السيرة للدكتور محمد سعيد البوطى.

« والعجيب الرائع حقا فى حياته صلى الله عليه وسلم ان أمر الوحى له قام على اسس وحقائق تصفع هذه الأوهام صفعات تلقيها فى متاهات الحمق والجنون » .

٧ — ولقد تواجـه الفلسفات الغربيـة حقيقة النبوة وظاهرة الوحى فتصفها بأنها وصاية على الانسان الذى بلغ رشده واصبح فى غير حاجة الى وصاية ما .

وذلك قول من الزيف المسرف فى احسان الظن بالبشرية .

فهل استطاعت البشرية حقا بعد هذا الزمن الطويل الذى قطعته (١) أن تكون راشدة ، الواقع الذى تثبته وقائع التاريخ وأحداث الزمن أن البشرية ما زالت عاجزة عن حماية نفسها من المطامع والأهواء والحروب والمذابح والمظالم ، بل لعلها قد بلغت بفضل تقدم العلم قدرا اكبر فهى التى تمضى فى تهديد الأمم الضعيفة بقوى الذرة والتكنولوجيا ، ولم يستطع تقدمها العلمى أن يرد اليها شيئا من الايمان او العدل او السماحة او الارتفـاع فوق الأهواء . ولذلك فهى لا زالت فى حاجة الى رعاية رسالات السماء وفى أشد الحاجة الى الوحى والنبوة ، لقد تقدم الانسـان فى مضمار السبق العلمى ، ولكنه عجز عن فهم نفسه وحماية كيانه من المطامع وما تزال أهواؤه تحول بينه وبين توجيه هذه المعطيات لخير الانسان .

ومن الحق أن يقال أن الانسان لم يزل بعـد عاجزا عن أن يكون أمينا على نفسه أو جنسه ولن يستطيع ذلك الا اذا آمن بالوحى والنبوة .

---

(١) بتصرف عن بحث للأستاذ محمد المجذوب .

٨ — فى ضوء هذا كله ننظر الى تلك المحاولات التى جرت فى تزييف سيرة الرسول .

أولا : باضافة الأساطير القديمة فى (هامش السيرة) .

ثانيا : بانكار أن الاسراء كان بالروح والجسد فى (حياة محمـــد) .

ثالثا : انكار النبوة والوحى فى (محمد رسول الحرية) .

رابعا : وصف النبى بالعبقرية دون الرسالة فى (عبقرية محمـــد) .

ولا ريب أن ابلغ اخطـــاء وصـــف النبـــوة بالعبقرية انما هو فى تعميم هذه الصفة على شخصيات أخرى لم تنفرد بالنبوة مما تجعلها تبدو كأنما هى محاولة الى فرض مفهوم البشرية على الرسول الذى تفرد بالعصمة والوحى وامتاز بهما عن سائر صحابته .

ولا ريب أن العبقريات وقعت تحت سلطان الفكر الغربى الذى تشكل الكاتب فى احضانه ثم نفذ منه الى دراسة الاسلام دون أن يقدر مدى الفارق الدقيق والعميق بين ذاتية الاسلام فى مفاهيمه ومناهجه والعوامل التى شكلت أهله ، ولم يلتفت ايضا الى تميز النبوة الوافر فالنبى فى عبقرية محمد انسان له مواهب وملكات منفصلة تماما عن وحى السماء . وحين تجرى مقارنته بنابليون أو غيره لا يلتفت تماما الى اختلاف النوع وانعدام الصلة حتى ليبدو اغفال الوحى اغفالا كاملا فى دراسته . ولم يرد اعجاب المسلمين بالرسول وحبهم له

دون جـدود الى الاسـلام نفسه وانما رده الى شخصية الرسـول .

يقـول غازى التـوبة فى دراسـته عن العبقريات : « فلو اقتصر دخول المسلمين على اعجابهم بشخص الرسول وحبهم له وافتتانهم به لانتهت الدعوة الاسلامية بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أو بعد وفاته ريثما يزول سحر الافتتان ولكن الدعوة الاسلاميـة استمرت قرونا طويلة وما ذلك الا لملاءمة الاسلام للفطرة البشرية التى انجذبت اليه فى زمن الرسول ثم استمر الانجذاب فى الأزمان التالية » .

٩ — وغاية القول أن اعتماد كتابنا العرب والمسلمين فى النظرة الى النبوة والبطولة فى ضـوء تفاسـير غربيـة انما يحجب عنهم شيئا كثيرا من الحق .

ذلك أن الغربيين عن طريق مفاهيم عقائدهم وفكرهم لا يفرقون بين الالوهية والنبوة بينما نحن نفرق بينهما تماما .

كذلك فهو يرى أن الكتب المقدسة كتبها الرسـل ونحن نؤمن بأن الكتاب المنزل هو وحى من الله وليس من عمـل النبى .

كذلك فهم يعيشون فى اطار مفهوم الوثنية اليونانية القائمة على عبادة البطولة ورفع الفرد الى مصاف الآلهة وانصاف الآلهة . بينما يقصر المسلمون العظمة كلها والعبودية كلها لله سبحانه وتعالى .

كذلك فهم يجسدون البطولة فى تماثيل بينما لا يؤمن الاسلام

بتجسيد البطولة ويركز مفهوم تقديرها فى توجيه العمل البطولى نفسه خالصا لله .

وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قيل من أن الشمس كسفت لموت ابنه واتخذ عمر من الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامى ولم يجعله شبيها بالأديان الأخرى حين اتخذوا مولد أنبيائهم .

١٠ — ان اخطر ما استدرج اليه الكتاب المسلمون والعرب من التبعية للمناهج الغربية فى تقدير البطولة أو تفسيرها ذلك الاتجاه نحو الوراثة والطبائع الفردية بينما يقوم منهج تفسير البطولة الاسلامى على تقدير الأثر الخطير الذى تحدثه التربية والعقيدة فى توجيه الانسان وتحويله من حال الى حال ومن هنا يبدو خطأ الاعتماد على رأى لونبروزوا ومدرسته فى تكوين البطل أو العبقرى ومن التعسف البالغ رد عظمة أبى بكر وعمر الى ملكاتهم دون تقدير أثر الاسلام فى تغيير النفوس واعادة تشكيلها مرة أخرى .

ولا ريب أن العقيدة الاسلامية هى التى حولت هذه الشخصيات واعادت صياغتها من جديد فى ضوء التوحيد واخرجتها من شخصيتها القديمة وأن أى مقارنة بين حياة عمر قبل الاسلام وبعده تكشف عن ذلك بوضوح ، كذلك يبدو هذا فى نماذج أقل بطولة : يظهر ذلك فى تحول الخنساء مثلا .

ومن الحق أن يقال أن هذا الزيف فى فرض منهج أو مذهب فى تفسير النبوة على انها بطولة أو عبقرية أو دعوة الى حرية انما هو من أعمال الأيدلوجية التلمودية التى تهدف الى تدمير قيم الوحى ورسالات السماء .

* * *

دار العلوم للطباعة
القاهرة: ٨ شارع حسين حجازي (القصر العيني)
ت: ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٤٤ / ٧٩
الترقيم الدولي ٨ ــ ٢٧ ــ ٧٣١٨ ــ ٩٧٧